الأمن الغذائي بالمغرب الأوسط في العهد الحمادي من خلال المصادر

Food security in the Central Maghreb in the Hammadid period through sources

د.قاسمي بختاوي
جامعة جيلالي ليابس – سيدي بلعباس
Kasmi196527@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/05/21 تاريخ القبول: 2021/06/17 تاريخ النشر: 2021/06/30

Abstract:

The Hammadid state is one of the Berber states that establish in the Central Maghreb after the Islamic conquest. Her rule lasted for more than a century, when was able to establish an elegant civilization, appeared in various fields. Perhaps what attracts attention is its development in the agricultural field, this is according to the testimony of travelers and geographers who wrote about it, alike during its first period in which the castle was used as its capital, Or after moving the capital to Bejaia.

Through this expose I'll show the factors which led the agriculture to be successful, as far as the livestock and the crops were concerned, like the weather and the abundance of water and the agricultural lands, the security and the stability let the andalusian settle there.

I will also review excerpts from the testimonies of travelers and geographers who have described at length the reality of agriculture in

the Kingdom of Beni Hamad, stating the factors that help them to practice. They mentioned the factors contributing to this activity and the most important varieties of agricultural and animal crops.

This study followed the historical analytical approach, by examining and analysing what the sources had done on the subject, finding that the Hamad had achieved in matter of food security, a dream that every nation aspires to achieve to be independent.

Keywords : Hammadid state ; The castle ; Bejaia ; Food security ; Agricultural crops.

الملخص:

تعد الدولة الحمادية من الدول البربرية التي قامت بالمغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي. دام حكمها أكثر من قرن من الزمن، استطاعت خلاله إقامة حضارة راقية، ظهرت تجلياتها في مختلف المجالات. ولعل ما يلفت الانتباه تطورها في الميدان الفلاحي، وهذا بشهادة من كتبوا عنها من الرحالة والجغرافيين سواء في عهدها الأول الذي اتخذت فيه القلعة عاصمة لها، أو بعد نقل العاصمة إلى بجاية.

أحاول من خلال هذا المقال إبراز العوامل التي ساهمت في ازدهار الفلاحة ووفرة منتوجاتها النباتية والحيوانية، كملاءمة الظروف المناخية، ووفرة المياه والأراضي الزراعية، وعامل الأمن والاستقرار الذي ساعد على توافد الأندلسيين على المنطقة. كما سأستعرض مقتطفات من شهادات الرحالة والجغرافيين الذين وصفوا بإسهاب واقع الفلاحة بمملكة بني حماد، فذكروا العوامل المساعدة على مزاولة هذا النشاط، وأهم أصناف المحاصيل الزراعية والحيوانية.

اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي، بدراسة ما جادت به المصادر في الموضوع، وتحليله، حيث خلصت إلى أن آل حماد حققوا الأمن الغذائي، وهو حلم كل دولة تطمح إلى تحقيق سيادتها الكاملة.

الكلمات المفتاحية: الدولة الحمادية ؛ القلعة ؛ بجاية ؛ الأمن الغذائي ؛ المحاصيل الزراعية.

مقدمة

تعد الدولة الحمادية واحدة من الدويلات التي قامت بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط. عرف اقتصادها حسب الكثير من المؤرخين والجغرافيين ازدهارا كبيرا، خاصة في الميدان الفلاحي، حيث تنوعت المحاصيل الزراعية، والمنتوجات الحيوانية، فتحقق لها الاكتفاء الذاتي في معظم الفترات؛ بل وصل أحيانا إلى تحقيق فائض صدر إلى الخارج. فما هي العوامل الرئيسية التي ساهمت في تطوير النشاط الفلاحي وتحقيق الاكتفاء الذاتي الغذائي في العهد الحمادي؟ وفيم تمثلت أهم المنتوجات الزراعية والحيوانية خلال هذه الفترة؟

لقد كان الأمن الغذائي ولا يزال يمثل هدفا أساسيا تصبو مختلف الدول إلى تحقيقه، ضمانا للاستقرار، وتخفيفا لنفقات الاستيراد. إلا أن هذا الأمر لا يتأتى للجميع، نظرا لاختلاف الظروف الطبيعية، والإمكانيات المادية، والبيئة السياسية، التي تعد من المقومات الأساسية لتجنب التبعية الغذائية.

1. مفهوم الأمن الغذائي:

مر مفهوم الأمن الغذائي عبر التاريخ بعدة تطورات نظرا لتعقيدات قضاياه، وهذا قبل أن توضع له صياغة أكثر دقة في القمة العالمية للأغذية التي انعقدت في نوفمبر عام 1996م، حيث

تم الاتفاق على التعريف التالي: "الأمن الغذائي هو الحالة التي توجد عندما يتمتع البشر كافة وفي جميع الأوقات، بفرص الحصول المادية والاقتصادية على أغذية كافية وسليمة ومغذية، تلبي حاجاتهم التغذوية، وتناسب أذواقهم الغذائية، من أجل حياة نشطة وصحية"[1]. ويبدو أن الحماديين لم يكتفوا بتأمين حاجياتهم الغذائية، بل توصلوا إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي الغذائي، بإنتاجه محليا دون تبعية لغيرهم كما هو حال الكثير من الدول في عالمنا المعاصر. فكرامة أي أمة تقوم على اكتفائها وعدم احتياجها إلى غيرها في الحصول على حاجياتها الأساسية، ولعل إنتاج الغذاء الكافي يأتي في مقدمة ذلك. وقد أشار المولى عز وجل في محكم تنزيله إلى نعمة الأمن بصفة عامة والأمن الغذائي بصفة خاصة حيث قال تعالى في شأن قريش: ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾[2].

2. العوامل المساعدة على تحقيق الاكتفاء الذاتي الغذائي عند الحماديين:

تعد الفلاحة المصدر الرئيسي لإنتاج غذاء الإنسان؛ الأمر الذي يدعو إلى الاهتمام بهذا القطاع الهام، الذي أشارت المصادر التاريخية إلى أنه عرف تطورا ملحوظا بالمغرب الأوسط في العهد الحمادي، سواء في الدور الأول (دور القلعة) أو الدور الثاني (دور بجاية). ويعود ذلك إلى تظافر مجموعة من العوامل من أبرزها ما يلي:

1.2. اتساع رقعة الدولة الحمادية:

اشتملت الدولة الحمادية منذ تأسيسها وإلى غاية وفاة محسن بن القائد سنة 447ه/1055م، على قلعة بني حماد والمسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت ومرسى الدجاج وبلاد زواوة ومقرة ودكامة وبلزمة وسوق حمزة؛ قبل أن تتوسع أكثر أيام حكم الناصر بن

علناس(454 – 481ه/1062 – 1089م)، لتضم بجاية بعد تأسيسها، ومدنا أخرى كمليانة ونقاوس وقسنطينة والجزائر وبسكرة وصفاقص وقسطيلية وتونس والقيروان، علما أن الكثير من هذه المناطق كانت معروفة بوفرة سهولها وخصوبة أراضيها[3].

2.2. وفرة المياه للشرب وللري:

يعد الماء أساس الحياة لقوله تعالى: "**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**"[4]. وقد من المولى عز وجل على الحماديين بمياه وفيرة، حيث وجدت الأنهار وتم حفر الآبار؛ إذ أشارت الكثير من المصادر إلى ذلك، فقد تطرق عبد الرحمن بن خلدون وهو يتحدث عن بعض إنجازات الخليفة المنصور بعد انتقاله إلى بجاية، إلى المجهودات التي بذلها لتوفير المياه فقال: " وكان المنصور هذا جماعة مولعا بالبناء، وهو الذي حضر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع، وإجراء المياه في الرياض والبساتين[5]. ويشخص البكري واقع المياه في العهد الحمادي، فيشير إلى وجود ثلاثمائة وستون جبا بمجانة[6]. ثم يقول وهو يتحدث عن طبنة:" وبها قصر وأرباض، وداخل القصر جامع وصهريج كبير يقع فيه نهرها، ومنها تسقى بساتينها ... ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب"[7]. أما عن وفرة المياه ببسكرة فقال: "وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة، منها في الجامع بئر لا تنزف، وداخل المدينة جنان يدخل إليه الماء من النهر"[8]. وجاءت شهادة الإدريسي عن المياه بتيهرت، في ما يلي: أن بتيهرت مياها متدفقة وعيونا جارية، تدخل أكثر ديارهم، ويتصرفون بها[9].

3.2 . انتهاج سياسة التسامح:

انتهج الحماديون سياسة واضحة تقوم على التسامح بين مختلف الملل، والبحث عن الأصلح وتشجيعه من أي طائفة كان؛ مما أدى إلى التعايش واختفاء حدة الشعور القبلي، في ظل حماية الدولة الحمادية لمختلف الطوائف، وتوظيفها في صنع الحضارة باختلاف مظاهرها[10].

4.2. نزوح الكثير من المسلمين نحو مملكة بني حماد:

نزح عدد هائل من المسلمين بعد ضعف سلطانهم بالأندلس وصقلية وغيرهما، نحو مملكة بني حماد، أين وجدوا الأمن والأمان، واستقرار معظمهم بالمناطق الساحلية، حيث مارسوا حرفا ونشاطات مختلفة كالفلاحة والصناعة والتجارة، فكانت تنس مقرا لكثير من النازحين الأندلسيين، حيث يشير ابن حوقل إلى ذلك بقوله:" وهي أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم، ويقصدونها بمتاجرهم، وينهضون منها إلى ما سواها"[11].

5.2. الأمن والاستقرار:

عرفت الدولة الحمادية الأمن والاستقرار في الكثير من مراحلها، مثل مرحلة التأسيس، ومرحلة الصلح بين حماد والمعز، إضافة إلى عهدي القائد وبلكين بن محمد؛ فعم الرخاء الاقتصادي، مما جعل المنطقة قبلة للتجار الذين قصدوها من مختلف الأمصار، إذ يقول البكري في شأن قلعة أبي طويل:" وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب"[12].

3. المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية في الدولة الحمادية:

أولى الحماديون عناية كبيرة للنشاط الزراعي وتربية المواشي وصيد الأسماك، باعتبارها مصادر لتوفير الغذاء، حيث يشير الكثير من الرحالة والمؤرخين إلى تنوع المنتوجات الزراعية والحيوانية ووفرة الإنتاج، بما يزيد عن الحاجة، نتيجة توفر الظروف المساعدة على ذلك. وفيما يلي أهم ما قيل عن المحاصيل الزراعية والإنتاج الحيواني بأقاليم الدولة الحمادية:

1.3. ابن حوقل:

يتطرق صاحب صورة الأرض إلى المزروعات والمنتوجات الحيوانية الرئيسية، بأهم المناطق التي كانت خاضعة لسلطان الدولة الحمادية، حيث يقول عن المراسي الواقعة بين مدينتي بونة والجزائر:" ... وبها من رخص الأسعار أيضا في الفواكه والمآكل والمطاعم والقمح والشعير والألبان والمواشي، ما يغرق غيرهم ممن يجاورهم. وبها من الأشجار والثمر والتين خاصة العظيم الجسيم، ما يحمل منه إلى البلاد النائية منه"[13]. وفي هذا إشارة إلى تنوع الإنتاج الفلاحي ووفرته، إلى حد توجيه الفائض منه إلى البلاد المجاورة. وعن منتوجات جزائر بني مزغنة يقول:" لها بادية كبيرة، وجبال فيها من البربر كثرة، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال. ولهم من العسل ما يجهز عنهم، والسمن والتين ما يجهز ويجلب إلى القيروان وغيرها"[14]. ثم يشير إلى واقع الزراعة ببرشك، فيقول عنها:" لها مياه جارية، وآبار معين. وبها فواكه حسنة غزيرة، وسفرجل معنق كالقرع الصغار وهو طريف وأعناب. والغالب على أهلها البربر، ولها بادية يشتارون العسل من الشجر والأجباح لكثرة النحل بالبلد. وأكثر أموالهم الماشية، ولهم من الزرع والحنطة والشعير ما يزيد عن حاجتهم"[15]. وهنا إشارة أخرى من ابن حوقل إلى وجود اكتفاء ذاتي غذائي، بل وتسجيل فائض في الإنتاج. أما عن جودة المنتوجات الزراعية بتنس

فيذكر:" ... وبها من الفواكه السفرجل المعنق ما لا أزال أحكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته"[16].

2.3. الإدريسي:

أشار بدوره في كتاب المغرب، إلى أهم الغلات الزراعية والمنتوجات الحيوانية التي كانت تزخر بها دولة بني حماد، حيث قال:" بمدينة قسنطينة، الحنطة تقيم في مطاميرها مائة سنة لا تفسد ... وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث وأربع منقورة في الحجر"[17]. وتخزين المنتوج في المطامير دليل واضح على غزارة الإنتاج. كما كان إنتاج الشعير والحنطة وفيرا بشرشال بما يزيد عن الحاجة[18]. أما تنس، فكانت الحبوب تخرج منها إلى كل الآفاق في المراكب[19]. ثم يقول عن القلعة وضواحيها، أنها بلد زرع وخصب، والحبوب بها وافرة، حيث ذكر:" أن فلاحتها إذا كثرت أغنت، وإذا قلت كفت، فأهلها أبد الدهر شباع ... والحنطة تختزن بها، فتبقى العام والعامين، لا يدخلها الفساد، ولا يعتريها تغيير"[20]. وعن التين يقول أن بتاجنة القريبة من تنس:" شجر التين كثير جدا، ويعمل بها من التين شرائح على مثال الطوب، وبذلك تسمى، وتحمل منها إلى كثير من الأقطار... وأن تين مرسى الدجاج، يحمل منها شرائح طوبا ومنثورا إلى سائر الأقطار وأقاصي المدائن والأمصار"[21]. كما تكلم عن السفرجل من حيث جودته، وأماكن إنتاجه، فقال أن بتنس: "من السفرجل الطيب المعنق، ما يفوق الوصف في صفته وكبره وحسنه... وأن بمدينة الخضراء من السفرجل كل بديع... وأن بشرشال سفرجل كبير، ذو أعناق القرع الصغار، وهو من الطرائف غريب في ذاته"[22]. وعن الإنتاج الحيواني أشار إلى كثرة العسل والسمن بالجزائر، بقوله:" ... وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة

لهم والمتباعدة عنهم ... وأن بقسنطينة العسل كثير وكذلك السمن يتجهز به منها إلى سائر البلاد"[23]. وتكلم الإدريسي أيضا عن الثروة السمكية التي كانت تصطاد على الساحل الحمادي، حيث قال:" حوت جيجل كثير العدد، متناهي الطيب والقدر ... وأن بمدينة المسيلة سمك صغير فيه طرق حمر حسنة، لم ير على وجه الأرض المعمورة سمك على صفته. وأهل المسيلة يفتخرون به، ويكون مقدر هذا السمك من شبر إلى ما دونه، وربما اصطيد منه الشيء الكثير، فاحتمل إلى قلعة بني حماد"[24].

3.3. البكري:

لم يشذ البكري عن الملاحظات التي أوردها ابن حوقل والإدريسي حول تنوع المحاصيل الزراعية والحيوانية ووفرتها وجودتها، حيث ذكر أن بمدينة باديس كان الشعير يزرع مرتين في العام على مياه سائحة كثيرة عندهم[25]. ثم نوه بجودة تمور بسكرة وتعدد أنواعها بقوله:" جنس(أي نوع من التمر)، يعرفونه بالكسبا وهو الصيحاني، يضرب به المثل لفضله على غيره، وجنس يعرف بالليلاري، أبيض أملس، كان عبيد الله الشيعي يأمر عماله بالمنع من بيعه، والتحظير عليه، وبعث ما هنالك منه إليه، وأجناس كثيرة يطول ذكرها"[26].

4.3. صاحب الاستبصار:

وهو مؤلف مجهول، تكلم عن انتشار زراعة الكروم بالكثير من أرجاء الدولة الحمادية، خاصة جيجل التي كان عنبها يحمل إلى بجاية[27]. كما أشار إلى وفرة إنتاج الجوز خاصة بمدينة نقاوس، التي كان يحمل منتوجها منه إلى معظم أرجاء البلاد[28]. ثم ذكر ضمنيا زراعة الحبوب، لما أشاد بنوعية المطاحن التي كانت تصنع بمجانة، والتي لم يكن لها مثيلا على الأرض على حد

وصفه[29]، حيث نوه الإدريسي بجودة صنعها وحسن طحينها[30]، في حين ذكر ابن حوقل أنها كانت تصدر في المغرب كله[31].

5.3. القلقشندي:

اعتمد القلقشندي على مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، وتقويم البلدان لأبي الفدا، فأحصى أهم المحاصيل الزراعية عند الحماديين بعد أن أصبحت بجاية عاصمة ملكهم، حيث قال أن بمملكة بجاية:" الحبوب والقمح والشعير والفول والعدس والحمص والذرة ... ومن الفواكه، العنب والتين والرمان والسفرجل والتفاح والكمثري والعنب والزعرور والخوخ والمشمش والتوت والقراصيا والزيتون والأترج والليمون والنارنج واللوبيا واللفت والباذنجان"[32].

4. مظاهر الاكتفاء الذاتي الغذائي عند الحماديين:

يعد الاكتفاء الذاتي عموما، وفي المجال الغذائي بصفة خاصة هدفا استراتيجيا، سعت إلى بلوغه معظم الأمم عبر الأزمنة والعصور، عملا بمقولة:" لا خير في أمة تأكل ما لا تزرع، وتلبس ما لا تصنع ". ويبدو أن الحماديين قد وفقوا في تحقيق الأمن الغذائي، بل كانت فوائض إنتاجهم الزراعي والحيواني تصدر إلى أكثر من وجهة. يقول الإدريسي عن الفلاحة بقلعة بني حماد، أنها إذا كثرت أغنت، وإذا قلت كفت، وفي ذلك إشارة إلى وجود اكتفاء غذائي حتى في المواسم التي يقل فيها الإنتاج. ويقول أن منتوج زراعة الحنطة والشعير بشرشال كان يزيد عن حاجة أهلها، وأن حبوب منطقة تنس كانت تخرج إلى كل الآفاق في المراكب[33]. كما يشير أيضا إلى أن الحبوب كانت تخزن في مطامير لمدة طويلة دون أن يصيبها تلف، مما يؤكد

وجود الإنتاج الزائد عن الحاجة[34]. أما التين، فكان يصدر على شكل شرائح من الطـــوب إلى سائر الأقطار وأقاصي المدائن والأمصار. وكان الجوز والسمن والعســـل يحمـــل إلى الأقطـــار المجاورة وحتى البعيدة[35]. وأشار بن حوقل بدوره إلى الفائض في الإنتاج الزراعي والحيـــواني، حيث ذكر أن القمح والشعير والألبان والمواشي، كانت تصل إلى الموانئ الموجودة بين بونـــة والجزائر، بكميات كافية لإغراق غيرهم ممن يجاورهم[36].

خاتمة:

أجمع المؤرخون والجغرافيون الذين أمكنني الاطلاع على مؤلفاتهم، أن الإنتاج الزراعي والحيواني كان وفيرا بالمغرب الأوسط على عهد الحماديين. ذلك أن الظروف الطبيعية والمادية والسياسية كانت تساعد على تطوير القطاع الفلاحي؛ حيث المناخ المعتدل، والمياه الوفيرة، والسهول الخصبة المنتشرة حول القرى والمدن، وتشجيع مختلف الطوائف على المشاركة في دفع عجلة التطور في مختلف المجالات. وبهذا تنوعت المحاصيل الزراعية والمنتوجات الحيوانية، وتضاعف إنتاجها إلى حد تحقيق الاكتفاء الذاتي الغذائي، وتوجيه ما زاد عن الحاجة إما للادخار أو التصدير إلى الأقطار القريبة والبعيدة.

الهوامش:

1 – حسين أحمد السرحان، انعدام الأمن الغذائي: الأسباب وسبل المعالجة (القارة الإفريقية أنموذجا)، مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلد 15، العدد 4 إنساني، 2017، ص138.

2 – سورة قريش، الآيتان 3 و4.

3 – رشيد بورويبة، **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 117.

4 – سورة الأنبياء، الآية 30.

5 – عبد الرحمن بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000، ج6، ص232.

6 – أبو عبيد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، مكتبة المثنى، بغداد، 1968، ص 145.

7 – نفسه، ص ص 50 – 51.

8 – نفسه، ص 52.

9 – الشريف الإدريسي، **وصف إفريقية والمغرب(مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)**، نشر هنري بيريس، الجزائر، 1957، ص70.

10 – عبد الحليم عويس، **دولة بني حماد (صفحة رائعة من التاريخ الجزائري)**، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1991، ص 285.

11 – أبو القاسم بن حوقل النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص 78.

12 – أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص49.

13 – أبو القاسم بن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص 77.

14 – نفسه، ص 78.

15 – نفسه، ص 78.

16 – نفسه، ص 78.

17 – الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص ص 67 – 68.

18 – نفسه، ص 61.

19 – نفسه، ص 57.

20 – نفسه، ص 64.

21 – نفسه، ص ص 57 – 62.

22 – نفسه، ص ص 57 – 62.

23 – نفسه، ص ص 62 – 67.

24 – نفسه، ص ص 59 – 62.

25 – أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 92.

26 – نفسه، ص 52.

27 – مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب. مطبعة جامعة الإسكندرية، مصر، د ت، ص 18.

28 – نفسه، ص 60.

29 – نفسه، ص 48.

30 – الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص 87.

31 – أبو القاسم بن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص 81.

32 – أبو العباس أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في كتابة الإنشا**، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ج5، ص ص 112 – 113.

33 – الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص ص 57 – 64.

34 – نفسه، ص ص 67 – 68.

35 – نفسه، ص 62.

36 – أبو القاسم بن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص 77.